الشخصية الإسلامية في العصر الراهن بين الخلفية المعيارية والطموحات الحضارية

بقلم أ/ حمحامي مختار

لقد جاء الإسلام وهو يحمل أسباب سعادة الإنسان، سعادته في الدنيا، وسعادته في الآخرة. كانت نتائج فعل الإنسان على الأرض سلبية، أشاعت الفساد في قطاعات عديدة من مجالات الحياة {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الروم:41)، ولذلك كانت مهمّة الإسلام في إصلاح الفساد مهمّة شاقة على اتباعه، تقتضي منهم استعدادا متميّزا، يستجيب لحجم التّحدّيات الواقعية لإيقاف انتشار الفساد وحسره ما أمكن، لأنّ عناصر هدم الصّلاح لا تنعدم ما دامت السّماوات والأرض، فإبليس رئيس أهل الفساد دعا الله تعالى فـ {قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ}(الأعراف : 14 – 15). وليست هي المرّة الأولى التي ينساح فيها الفساد على الأرض، ويطغى، بل حدث ذلك من قبل، غير أن سنّة الله جرت في انتصار أهل الحقّ وهم يدفعون المفسدين إلى

التعقل والتّوبة، وشعارهم {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (الأعراف : 56).

لم تكن بعثة النّبيّ محمّد – صلّى الله عليه وسلّم – سوى تصحيح لمسار سير البشرية بعد انحرافها عنه، {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (يونس/104)، وحتى أدعياء إتباع الأنبياء والرُّسُل قد ساهموا مساهمة مباشرة في إضلال الأتباع، تغييرا للدّين، واستخفافا بأتباعهم، فافتُضحوا أمام الملأ بقوارع من الوحي : {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} (المائدة/15)، تلك كانت مهمّة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم –، مهمّة تتطلب بعثا إصلاحيا جديدا، يعالج واقع الإنسان سواء على مستواه الفردي أم على مستواه الجماعي. يعالج هذا الواقع في جانبه الفكري، وفي جانبه العاطفي، وفي جانبه المادي.

لم تكن الجزيرة العربية مسرحا لابتداء الوحي إلاّ نموذجا عمليا توفّرت له أسباب النّجاح بقدرة الخلاّق العليم، نموذجا يمثل الصّورة المثالية الواقعية

لتحديد عافية المجتمع البشري كلّما خرّبته عبثية المترفين. إنّ هذه الصورة قد كملت معالمها ومقاديرها مع نهاية نزول الوحي {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (المائدة: من الآية3)، و لم ينتقل رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – إلى الرّفيق الأعلى حتى أبان كلّ ما يحتاجه المسلمون لاستمرارية التّمكين الذي حدث لهم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "قَدْ تَرَكْتُكُم على المحجةْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ"(1). ومن تمّ كانت عملية جمع القرآن الكريم في مصحف، وجمع السنّة في الدّواوين إجراء حتميا لحفظ النّصوص الشرعية من التحريف والتغيير، وما كان هذا الإجراء إلاّ وجها من وجوه الحفظ الرّباني {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر/09). ولحقت سنّة الخلفاء الرّاشدين بالوحي من باب الشرح والتفسير، إذ مخالطتهم لرسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– أكسبتهم إدراكا سديدا لمقاصد التشريع، فقد شاهدوا نزول القرآن آية آية، وصحبوا رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – في الحضر والسّفر، ورأوا من هديه حتى حصلت لهم به ملكةٌ اجتهادية، وهذا لم يتوفّر لغيرهم من مَن جاء بعدهم من المجتهدين، إذ لم يسعدوا بما سعد به الصّحابة –رضي الله عنهم– عامّة والخلفاء الرّاشدون خاصّة من صُحبة النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – .

إنّ معايير النّجاح لدى الأمم غير الإسلامية فيها من النّسبية بمقدار ما في البشر من محدودية في وسائل الإدراك والفعل، لأنّ مصدرها البشر العاجز عن بلوغ الإحاطة الكاملة بالأمور، بخلاف الوضع عند الأمّة الإسلامية، فموازينها معايير معصومة في كلّياتها، معصومة في نصوصها، تحقّق لها التطبيق المشهود ردحا من الزّمن، نعم لم يكن هذا التطبيق معصوما عصمة النّصوص، ولكنّه يمثل أكمل الصّور الممكنة لتجسيد النّصوص الشرعية في واقع النّاس، إنّ وقوع خلل ما في واقع الصّورة النموذجية هو معيار آخر من معايير التقييم، ليس من كون الخلل معيارا، ولكن من جهة سلوك التّعامل مع هذا الخلل، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – في ليلة من ليالي حكمه وهو يتفقد رعيّته بالمدينة المنورة "فمرّ بامرأة وهي في بيتها وهي تقول :

تطاولَ هذا اللّيلُ واسوَدَّ جانبُه *** وطال عليَّ ألا خليلٌ ألاعبه

فوالله لولا خشيةُ الله وحده *** لحــرَّكَ مِن هذا السَّرِيرِ جوانبه

فلمّا أصبح عمر أرسل إلى المرأة فسأل عنها. فقيل : هذه فلانة بنت فلان وزوجها غاز في سبيل الله، فأرسل إليها امرأة، فقال : كوني معها حتى يأتي زوجها. وكتب إلى زوجها فأقفله، ثمّ ذهب عمر إلى حفصة بنته، فقال لها : يا بنية، كم تصبر المرأة على زوجها؟ فقالت له : يا أبه يغفر الله لك، أمثلك يسأل مثلي عن هذا؟ فقال لها إنّه لو لا أنّه شيء أريد أن أنظر فيه للرّعية ما سألتك عن هذا. قالت : أربعة أشهر أو خمسة أشهر أو ستة أشهر. فقال عمر: يغزو النّاس، يسيرون شهرا ذاهبين، ويكونون في غزوهم أربعة أشهر، ويقفلون شهرا. فوقّت ذلك للنّاس في سنتهم في غزوهم"[2]. فكون المرأة

اشتاقت إلى زوجها لطول غيابه عنها في الغزو، ووصل بها الأمر إلى أن تفكرّ في مُضاجعِ لها في الحرام، هذا خلل نجم عن عدم مراعاة حقوق الأزواج وتقديم مصلحة جهاد الكفار مطلقا، وهذا الخلل ليس معيارا في الظروف العادية غير المحكومة بأحكام الضرورة، ولذلك فزع عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لما سمع، و لم يوبخ المرأة على ما همّت به لولا خوفها من الله، وعالج المسألة بتنظيم مدّة مكث المجاهد في جبهات القتال، وهذا هو المعيار في هذا المثال، صيانة أعراض المسلمين فلم يترك المرأة وحدها بل أرسل لها من يرافقها ويزيل عنها وحشتها، وهو سلوك تربوي، وتمكين المجاهدين من أن يعودوا إلى ديارهم للاهتمام بشؤون أهليهم، وهو سلوك اجتماعي يلبي رغبات الفرد المختلفة، فمعالجة الخلل الواقع بإجراءات تخدم النّصوص المعصومة هو المعيار المأخوذ من التطبيق الرّاشدي. يقول الإمام الشاطبي : "وهذا كله ظاهر لمن نظر في الأحكام المكية، مع الأحكام المدنية، فإنّ الأحكام المكية مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال، بالنسبة إلى حقوق الله أو حقوق الآدميين. وأمّا الأحكام المدنية فمنزلة في الغالب على وقائع، لم تكن فيما تقدم، من بعض المنازعات، والمشاحات، والرخص، والتخفيفات وتقرير العقوبات في الجزئيات لا الكلّيات، فإنّ الكلّيات كانت مقررة محكمة في مكّة"[3]. ثم قال : "كان المسلمون قبل الهجرة، آخذين بمقتضى التنزيل المكي، على ما أدّاهم إليه اجتهادهم، واحتياطهم، فسبقوا غاية السّبق، حتى سمّوا السّابقين بإطلاق. ثم هاجروا إلى المدينة، و لحقهم في ذلك السّبق مَن شاء الله من الأنصار، وكملت لهم بها شُعَب الإيمان ، ومكارم الأخلاق، وصادفوا

ذلك وقد رسخت في أصولها أقدامهم، فكانت المتممات أسهل عليهم، فصاروا، بذلك نوراً، حتى نزل مدحهم، والثناء عليهم في مواضع من كتاب الله، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقدارهم، وجعلهم في الدّين أئمة فكانوا هم القدوة العظمى في أهل الشريعة"[4].

واستبقاء المعايير الإسلامية المرجع الوحيد لنهضة الأمّة في العصر الرّاهن ضرورة حضارية زيادة على كونها واجب ديني، فإنّ البلاد العربية لم تكن شيئا مذكورا حتى سما ذكرها بالإسلام، و لم يأفل نجمها إلاّ لّما تركت العمل به في شؤونها، وزوته في ركن التقاليد والعادات أو التمسح بأذياله لأخذ البركات أيّام المواسم والمناسبات، وقنعت "من الإسلام بمجرد الاسم، والحال أنّ الإسلام اسم وفعل"[5]، وقديما قال الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – : "لا يصلح آخر هذه الأمّة إلاّ بما صلح به أوّلها"[6].

وفيما يلي أهم الأسس التي تقوم عليه المعايير الإسلامية :

1-صحة الإيمان وقوته :

قال الله تعالى : {الم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(3)وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(4)أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (البقرة/05).

إنّ الإيمان بالغيب هو القوّة الدّافعة التي أسست الحضارة الإسلامية الماضية، و لم ينطلق ذاك العربي في فتوحاته إلاّ وهو متسلح أساسا بقوة إيمانه على قلّة في العُدّة والعدد، لقد فقه قول الله تعالى : {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(41)وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ(42)وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ(43)وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(44)فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}(الحج/45) ، فإنّ التمكين ليس هدفا نهائيا، ولكنّه وسيلة لتحقيق عبودية الله على الأرض.

2-قوّة تماسك المجتمع المسلم وانسجامه :

إنّ قوّة المجتمع المانعة من تأثير كيد الأعداء ناتجة عن قوة التماسك الداخلي للمجتمع، فكلّما كانت علاقات الأفراد قويّة غير متآكلة زادت في بنية المجتمع صلابة، وهذا ما يؤكده مجتمع الصّحابة – رضي الله عنهم –، قال الله تعالى : {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ

مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} (الفتح).

واكتساب هذه القوّة يكون بمحورين :

أولا : المحور الغيبي، واستمداد ذلك من الله تعالى بطاعته وإقامة شرعه. قال الله تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (الأنفال/63). ومخالفة شرع الله تعالى من أعظم أسباب الفرقة عقوبة من الله تعالى : {هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} (النعام/65)، وأهل الكتاب من قبل كالنّصارى لمّا تركوا كتاب الله تعالى صاروا فرقا متناحرة : {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (المائدة: 14).

ثانيا : محور الشهادة، أي الرّاجع إلى فعل البشر من إشاعة أسباب الألفة، وإزالة أسباب الفرقة، قال الله تعالى : {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال/46)، ولا يُتصور أنّ أفراد المجتمع كلّهم في مستوى واحد، ولكن فيهم مَن نزلت درجته حتى عدّ من الجاهلين، فحينئذ يأتي حلم الصفوة، {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (الفرقان/63)، {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران/134). بل حتى مع الأعداء لا يجوز أن يظلموا : {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (المائدة/2).

هذه التّزكية الروحية لدى أفراد الأمّة تكون ضعيفة التأثير إذا ما وُجدت في وسط مليء بالمحرضات على الانفلات كالظلم، الظلم السياسي والظلم الإقتصادي والظلم الإجتماعي، إنّ حرمان الأمّة المتواصل من حقوقها لا يزيد الواقع إلاّ اضطرابا، لا يوقفه تذكير المظلوم بعظم أجر العفو على الظالم، ولو كان هذا نافعا لصار التشريع القرآني عبثا فيما يخصّ بعقوبة الظالمين، وربّ

العزّة يقول : {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل:90).

3-حسن استغلال الإمكانات المتوفّرة :

إنّ الله تبارك وتعالى أعطى كلّ البشر قدرات معنوية ومادية تحت طوع أيديهم قابلة للتسخير، وهذه القدرات تخضع لسنن ربانية، ومعرفتنا بهذه السنن تجعلنا أقدر على تسخير الكون بما فيه من حولنا، والاستفادة من ذلك في تصريف شؤون حياتنا ، فضلاً عن تحديد مسار سلوكنا وفق ضوابط تحدد المعالم والأهداف والسبل الموصلة إليها.

ومن أهم هذه القدرات المسخّرة للإنسان وهو يقوم بعمارة الأرض :

1- (القدرة العقلية) لتكون مناط المسؤولية الدنيوية والأخروية، وبها يتمكن من استكشاف العالم، وتمييز السنن التي تتحكم في المخلوقات المختلفة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قيمة هذه القدرة في آيات عدّة منها : {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} (النفال/22)، وقوله : {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج/46)، وقوله : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (يوسف/109).

2- (القدرة المادية) التي تمكنه من تسخير هذه المخلوقات في شؤونه وحاجاته. وفي الأزمنة السّابقة كانت المعجزة الربّانية حاضرة في تسخير هذا الجانب للأنبياء والرّسل، كما هو الشأن في زمن داود وسليمان – عليهما السّلام – قال الله تعالى : {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} (سبأ/10)، وقال : {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} (78)فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ(80)وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(81)وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} (الأنبياء/82) ....

هذا الأمر لم يَسْرِ في هذه الأمّة، بل وُكّلت إلى نفسها، وأُمرت أن تأخذ بالأسباب المتوفّرة لها والإمكانات المتاحة أمامها، وآخر الأنبياء والرّسل محمّد بن عبد الله – صلّى الله عليه وسلّم – لم تكن سيرته في بناء المجتمع الإسلامي

إلاّ على ذلك، وفي هذا شُرع الإقتداء به والتّأسي بهديه. أمّا المعجزة لم تكن إلاّ دليلا قاطعا على صدق نبوته، و لم يرد الأمر بالإتيان بمثلها. فالصّحابة – رضوان الله عليهم – قد عاينوا المعجيزات التي أجراها الله تعالى على يد رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – كانشقاق القمر[7]، ونبع الماء من أصبعه[8] – صلّى الله عليه وسلّم –، وتكثير الطعام القليل[9].... وعاينوا أيضا دعوة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم –، وهجرته، وحربه، وسلمه ...، وشهدوا في ذلك كلّه عادته – صلّى الله عليه وسلّم– في اتخاذ الأسباب وتسخير ما أمكنه من الوسائل المادية لتحقيق ما يرومه – صلّى الله عليه وسلّم–، فلمّا آل الأمر إليهم – رضي الله عنهم– بعد وفاة رسول الله– صلّى الله عليه وسلّم – لاتمسوا القدوة في الجانب البشري من شخصية رسول الله– صلّى الله عليه وسلّم –، فقدّموا الأسباب ثمّ توكّلوا على الله تعالى ليفعل ما يريد.

إنّ استغلال القدرات المتوفّرة لدي البشر وتسخيرها لبلوغ السّعادة تتوقف على معرفة السنن المتحكمة في هذه القدرات، سواء كانت هذه القدرات عقلية، أم نفسية، أم إجتماعية، أم مادية، وهذه السنن ثابتة ثبات القوانين العامة المطردة، قال الله تعالى : {سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً}(الاسراء : 77)، وقال : {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً}(فاطر: من الآية 43). وانجماعات البشرية لا تتحرك رُقيا وانحطاطا إلاّ من خلال هذه السنن التي

أودعها الحكيم الخبير في هذا الوجود، فهي لا تضطر مع تغير أحجزة النّاس بعيدا عن تأثير عوامل أخرى، بل إنّ تفاعلها مع عمل الإنسان محكم، مُبرر بأجوبة مقنعة لمن أدركها. ولقد أخبرنا الله تعالى عن أهم السنن في رقي المجتمعات أو انحطاطها، فهي مرهونة بالتزام شريعة الله، أو النأي عنها، ففي باب الرقي وبسط النعمة، نجد قوله تعالى : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (الأعراف : 96). وفي باب الانحطاط تأتي أخبار الأمم البائدة تبين سبب هلاكها، وذلك لمّا انحرفوا عن خط التوحيد، فانتشرت بينهم نار العداوة والبغضاء، ثمّ حقّت عليهم السنة الربانية بزوالهم : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الأنعام/45). وبإنعام النظر في القرآن الكريم والسنة النّبوية نقتنع أنّ هذه السنّة عامّة تسري على البشر جميعا : { ... فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(123)وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}(طه/124)، فالسّعادة والشقاء - كما يقرر الحق تبارك وتعالى - مرتبطان طرديا بالتزام شرع الله، أو النأي عنه ورفضه، وهذه سنة ربانية تحكم حياة البشر، وستظل تحكمها إلى يوم القيامة.

وانتقال المجتمع من حال إلى حال لا يحصل عشوائياً. بل يحصل وفق سنن ربانية تحكم مساره وتضبط وجهته. سواء على المسنوى الفردي أم على المستوى الجماعي، فحال المجتمع يعكس سلوك الأفراد، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}(الرعد: من الآية11)، وقوله تعالى: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(52)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(الأنفال/53)، وقوله كذلك: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}(الأنفال/25). وليس من العسير الكشف عن هذه السنن المؤثرة في حركية المجتمع، لأنّها ماثلةٌ أمام أعيننا وأسماعنا نماذجَ أثمرت التمكين في الأرض، ولقد تقرر سابقا أنّ أمّ السنن في رقي المجتمع أو انحطاطه إلتزام

الإسلام عقيدة وشريعة، ولكن هذه السنّة العامّة تشترط الوعي التّام، والفهم الدّقيق لما عليه الأمّة، لأنّ الالتزام المطلوب هو الالتزام الواعي بأبعاد الموقف أو الحال الذي يحكم الأمّة، وقل إن شئت فقه المقام نصّا، ومكانا، وزمانا، وما يتعلق بشاغل المقام، وهو الإنسان، فما يحكم وُسعه لا يحكم ضيقه ... و"لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج، مغفلاً مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته"[10]، بل النّاس لهم من الخصوصيات ما ينبغي أن تؤخذ بجدية في وضع الخطط والبرامج، فـ "النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا"[11]، ولقد اشترط العلماء في المجتهد : أن يكون "فقيه النّفس يُصور المسائل على وجهها، وينقل أحكامها بعد استتمام تصويرها جليها وخفيها"[12]. والمعادن وإن تفاضلت قيمها فإنّه لا يغني بعضها عن بعض، فكذلك النّاس وإن تفاضلوا في العلم والعمل، فإنّهم يكملون بعضهم بعضا في صناعة التمكين، فرسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – استعمل رجلا عارفا بطرق الصحراء – وكان كافرا على دين قريش[13] – في طريق هجرته إلى المدينة المنورة مع مطاردة قريش له،. وفي هذا من الفقه ما فيه. واكتشاف الطّاقات لتوظيفها في وقتها وفي زمانها المناسبان أمر في غاية الأهمّية لبلوغ الأهداف المسطورة. فإنّ حسّان بن ثابت – رضي الله عنه – لم يُفد الإسلام بسيفه، ولكنّه كان أشدَّ من الحُسام المهنّد على المشركين بلسانه، وفي الحديث الصحيح : "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ. فَأَرْسَلَ إِلَى

ابْنِ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: اهْجُهُمْ فَهَجَاهُمْ. فَلَمْ يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ حَسَّانُ : قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ. ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ، فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ، فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا، حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي. فَأَتَاهُ حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَدْ لَخَّصَ لِي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ. قَالَتْ عَائِشَةُ : فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِحَسَّانَ: إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"[14]. أمّا أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري، شهد العقبة مع السبعين، وبدراً، والمشاهد كلّها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من الرّماة المذكورين، يقي بصدره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قوي التأثير على العدو، حتى "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَصَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الْجَيْشِ أَشَدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ فِئَةٍ"[15]. ومن النّاس مَن لا يُستفاد إلاّ بحضوره وتكثير السّواد، ولقد جاء في الحديث : "من كثّر سواد قوم فهو منهم"[16]، وهكذا النّاس يتفاضلون ويتكاملون في صناعة تمكين الأمّة، ودفع الأضرار عنها.

ولن تُعدم الأمّة من النّماذج البشرية المؤمنة الفعّالة إلى يوم القيامة، وهذا تأييد من الله تعالى، فقد جاء في الحديث : "عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ

اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ"[17]. ويبقى البحث عنهم وإعانتهم بما يتيسّر لهم مهمّتهم، وهؤلاء وإن كانوا قلّة[18]، فهم موجودون في أماكن عدّة من أمّتنا، تتنوّع تخصّصاتهم على قدر تنوع التخصصات الحضارية في الأمّة، كلّ واحد أو كلّ فئة قمّة في تخصصه، ويشتركون في قوة الإيمان بالله تعالى، وسلامة الفهم، وصدق العمل، والتضحية لبلوغ النّجاح.

الهوامش

1-رواه أحمد في المسند عن "الْعِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ، رقم : 16692.

2- أخرجه سعيد بن منصور في كتاب السنن عن زيد بن أسلم، باب الغازي يطيل الغيبة عن أهله، رقم : 2463. وهو مرسل. وصله البيهقي في السنن الكبرى قال : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا علي بن حمشاذ العدل ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي ثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر...، رقم : 17628. وهو في مصنف عبد الرزاق من طريقين منقطعين، الأول: عن ابن جريج قال أخبرني من أصدق أن عمر...، رقم : 12593، والثاني : عن معمر قال بلغني أن عمر...، رقم : 12594.

3- الموافقات في أصول الأحكام، ابو إسحاق الشاطبي، تحق : محمّد حسنين مخلوف، (بيروت، مط : دار الفكر، دت)، مج : 2 ، ج : 4 ، ص : 134.

4- المصدر نفسه، مج : 2 ، ج : 4 ، ص : 136.

5- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم. الأمير شكيب أرسلان، مراجعة حسن تميم، (بيروت، مط: منشورات دار مكتبة الحياة، سنة : 1975م)، ص : 132.

6- هذا هو المشهور، وقد ذكر الطبري أن الإمام علي بن أبي طالب قال لأهل المدينة المنورة : "إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، فقد رأيتم عواقب قضاء الله عز وجل على من مضى منكم، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم". تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري(ت: 310هـ)، (بيروت، مط: دار الكتب العلمية ، ط: 1، سنة: 1407هـ)، ج: 3 ، ص : 5. وذكر مثل أحمد بن علي الخطيب البغدادي(ت: 463هـ) في موضح أوهام الجمع والتفريق، تحق:

عبد المعطي أمين قلعجي، (بيروت، مط :دار المعرفة، ط: 1 ، سنة : 1407هـ)، ج: 1 ، ص: 263.

7- أخرج البخاري "عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ". كتاب المناقب، بَاب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ، رقم : 3637.

8- أخرج البخاري "عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّه رَضِيَ اللَّهم عَنْهمَا قَالَ عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ فَقَالَ مَا لَكُمْ قَالُوا لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا قُلْتُ كَمْ كُنْتُمْ قَالَ لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً". كتاب المناقب، بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ، رقم : 3576.

9- أخرج البخاري عن "عَبْدالْوَاحِد بْن أَيْمَنَ عَنْ أَبِيه قَالَ أَتَيْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهم عَنْهم فَقَالَ إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ أَنَا نَازِلٌ ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ فَعِنْدَكِ شَيْءٌ قَالَتْ عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ فَذَبَحَتِ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَجِينُ قَدِ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَقُلْتُ طُعَيِّمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ قَالَ كَمْ هُوَ فَذَكَرْتُ لَهُ قَالَ كَثِيرٌ طَيِّبٌ قَالَ قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ فَقَالَ قُومُوا فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ قَالَتْ هَلْ سَأَلَكَ قُلْتُ نَعَمْ فَقَالَ ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ كُلِي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ". كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، رقم : 4101.

10- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص : 47 – 48.

11- حديث أخرجه أحمد، باب باقي مسند المكثرين، رقم : 10573، وهو موجود عند البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}، رقم : 3353. ومسلم، كتاب الفضائل، بَاب مِنْ فَضَائِلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام، رقم : 2378.

12- المسودة في أصول الفقه، عبد السلام وعبد الحليم وأحمد بن عبد الحليم آل تيمية، تحق : محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة، مط : المدني، دت)، ج : 1 ،ص : 490.

13- أخرج البخاري : "أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ هَادِيًا خِرِّيتًا وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ". كتاب الإجارة، بَاب إِذَا اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا لِيَعْمَلَ لَهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَوْ بَعْدَ شَهْرٍ أَوْ بَعْدَ سَنَةٍ جَازَ وَهُمَا عَلَى شَرْطِهِمَا الَّذِي اشْتَرَطَاهُ إِذَا جَاءَ الْأَجَلُ، رقم : 2264. وأخرجه أيضا في بَاب اسْتِئْجَارِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ أَوْ إِذَا لَمْ يُوجَدْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ وَعَامَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودَ خَيْبَرَ، رقم : 2263.

14- أخرج مسلم، كتاب فضائل الصّحابة، بَاب فَضَائِلِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم، رقم : 2490.

15- أخرجه أحمد، باقي مسند المكثرين رقم : 12692.

16- قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (ج : 13 ، ص : 37) : "وقد جاء عن بن مسعود مرفوعا "من كثر سواد قوم فهو منهم، ومن رضي عمل قوم كان شريك من عمل به"، أخرجه أبو يعلى وفيه قصّة لابن مسعود، وله شاهد عن أبي ذر في الزهد لابن المبارك غير مرفوع". وله شاهد عند البخاري قال : "حَدَّثَنَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ حَدَّثَنَا حَيْوَةُ وَغَيْرُهُ قَالَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ أَبُو الْأَسْوَدِ قَالَ قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثٌ فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ ثُمَّ قَالَ أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} الْآيَةَ رَوَاهُ اللَّيْثُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ". كتاب تفسير القرآن، بَاب {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} الْآيَةَ، رقم : 4596.

17- أخرجه البخاري، كتاب الإعتصام بالكتاب والسنّة، بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، رقم : 7311.

18- وهذا لايطعن في الحديث النّبوي عند البخاري : "أَنَّ عَبْدَاللَّه بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهم عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَة لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً". كتاب الرقاق، بَاب رَفْعِ الْأَمَانَة، رقم : 6498. لأنّ الحديث يفيد المبالغة في ندرة الطائفة المميزة، أو هو إخبار عن آخر الزّمان، كما ترجم له البخاري رحمة الله عليه.